امرأة لا تحيض

امرأة لا تحيض

جلست سوسن في حديقة فيلتها مع فنجان (النسكافيه) الذي أحبته واعتادت عليه من فترة طويلة، فمنذ عامين وفي تمام السادسة والنصف صباحًا تجلس في انتظار ابنتها وزوجة ابنها، فقد اتفقتا معها على أن تتركا في رعايتها أحفادها الثلاث قبل ذهابهما إلى أشغالهما "أحمد ومحمد" توأمي ابنها و"شجن" ابنة ابنتها، أما "سالي وسامي وسوسن الصغيرة" فهم أبناء ابنتها المتوفاة ويعيشن معها في الفيلا، توفيت ابنتها سهام وهي في ريعان شبابها إثر حادث أليم مع والدها مما جعل زوج ابنتها يوافق أن يترك لها أحفادها لرعايتهم بعد أن قرر الزواج، وكان ذلك أمر طبيعي. فقد جاءها زوج ابنتها بعد فترة الحداد يطلب منها السماح له بالزواج وكان ذلك تفضلاً منه يشكر عليه، تمنت له السعادة وطلبت منه أن يترك لها أحفادها ترعاهم. فلم يمانع، كانت فيلا سوسن ملتقى للعائلة، وذلك ما خفف عندها صدمة فقدان زوجها وابنتها، ولكنهما لم يفارقا خيالها لحظة عندما تنفرد بنفسها. لذلك كان ابنها وزوجته وابنتها وزوجها وأبناؤهم دائمي التردد عليها، وكذلك أخيها محمود وزوجته وداد التي كانت زميلتها في الدراسة.

خمسة وعشرون عامًا مضت على زواج محمود ووداد لم ينجبا فيها أطفال ولكنهما كانا في غاية السعادة ويضرب بهم المثل في الحب الذي كان من أول نظرة.

استحضرت سوسن من ذاكرتها تلك الأيام التي كانت والدتها تلح

على ابنها محمود أن يتزوج بأخرى حتى يرزق بطفل يرث اسمه ويخلد ذكراه كعادة أهل الريف، وحتى يبعد محمود الفكرة عن ذهن أمه حسم الموقف بكذبة بيضاء لأمه:

ـ يا أمي إن زوجتي ليس بها ما يمنعها عن الإنجاب، إنما المشكلة عندي أنا حسب تقارير الأطباء.

أما وداد فقد ادعت نفس الشيء على نفسها لأسرتها حتى يكفوا عن مطاردتها بأسئلتهم عن سبب تأخير الإنجاب.

دق جرس التليفون فأخرج سوسن من ذكرياتها.

ـ أيوه يا وداد.. إزيك، والله كنت لسه في بالي.

قالت وداد في صوت مختنق:

ـ سوسن أنا في احتياج لك ضروري تعالي.

انزعجت سوسن وقالت مسرعة:

ـ هل محمود بخير؟ هل حدث شيء لأحد من أهلك؟

ردت وداد باقتضاب:

ـ الجميع بخير ولكني أنا.. أنا في احتياج لك.. بسرعة أرجوك.

وقفت سوسن تستبدل ملابسها وعادت بذكرياتها، كانت وداد ومحمود من الناحية الطبية لا يوجد أي مانع يعوقهم عن الإنجاب ولكنها إرادة الله، فقد قال لهما الطبيب:

ـ لو تزوج كل منكم بغير الآخر ولو شاء الله لأنجبتم .

ولكنهما ردا سويًا :

ـ إن حبنا لبعضنا يغنينا عن أي رغبة في الإنجاب .

عاش محمود ووداد متماسكين أمام جميع الهزات التي تعرضا لها سواء من أهله أو من أهلها أو حتى معارفهم، ولكنهما بحبهما تجاوزا كل الصعوبات وعاشا خمسة وعشرين عامًا يضرب بهم المثل في السعادة والهناءة .

اتجهت سوسن ناحية سيارتها بجراج الفيلا بعد أن أوصت المربية برعاية أحفادها لحين عودتها .

فوجئت سوسن بأخيها محمود أمامها شاحب الوجه يرتعد . . وقبل أن يتفوه بكلمة قالت له :

ـ تعال إلى حجرتي بعيداً عن شغب الصغار، وسأعد لك كوبًا من عصير الليمون البارد ليهدئك ثم تقص عليّ ما حدث .

بعد أن هدأ محمود واسترد أنفاسه قال وبدون مقدمات :

ـ سوسن أريدك أن تبحثي لي عن زوجة أخرى .

انتفضت سوسن قائلة بانفعال :

ـ آه . . إذن هذه مكافأتها منك بعد هذا العمر والعشرة والحب . . الآن بعد أن وهبتك كل حياتها وأفنت عمرها لإسعادك . . الآن ولأنك

أكيد اشتقت أن يكون لك ولد . . تبحث عن أخرى صغيرة تستطيع أن تنجب لك . . هل بلغت أنانيتك هذا الحد؟

حاول محمود أن يستوقف انفعالها ولكنها كانت مندفعة بدون توقف :

ـ هل طاوعك قلبك أن تجرح شعورها وتأتي لها بمن تطيح بها من على عرش مملكتها؟ هل تريد أن تُرضى غرورك وأنت على مشارف سن المعاش أنك لازلت قادراً على أن تبدأ حياتك من جديد مع عروس شابة؟ هل بلغت من الجرأة أن تطلب مني أن أبحث لك عن عروس؟

تنهد محمود بأسى وقال :

ـ هل انتهيتي من كل اتهاماتك لي؟ لقد أخذك خيالك إلى شيء بعيد عن تفكيري . إن الزوجة التي أبحث عنها وأفكر في الارتباط بها امرأة تكون قادرة على إسعادي في مثل هذا العمر . امرأة لا تعاني ولا تجعلني أعاني . إنني أبحث عن امرأة لا تنجب ولا تنتظر الإنجاب بمعنى أصح إني أبحث عن امرأة لا تحيض .

كان كلام محمود لسوسن مفاجأة . . صدمة جعلتها تقول باستخفاف :

ـ وماذا عن وداد ألا زالت تحيض؟ إنها في مثل عمري تقريبًا ـ يعني تجاوزت الخمسين .

قاطعها محمود :

ـ المشكلة ليست في أنها تحيض أو لا تحيض . . المشكلة أنها وعلى غير العادة منذ أن تزوجنا كانت تجتاز تلك الأيام الثلاثة أو الخمسة ببساطة

ويسر ، أما اليوم ومنذ عامين تقريباً صارت تلك الفترة أكثر من أسبوع أو عشرة أيام أرى فيها عذاب الدنيا كلها من نكد وألم وهم وغم .

قالت سوسن :

ـ ولماذا لم تذهبا إلى طبيب مختص؟

قال محمود :

ـ رفضت بحجة أنها أمور طبيعية تمر بها كل السيدات .

باستغراب قالت سوسن :

ـ هذا كلام غير مقنع . . ولا بد أن بالمسألة سراً . . دعني أكتشفه ثم بعد ذلك أبحث لك عن امرأة أخرى تسعدك. وأضافت ضاحكة بسخرية : امرأة لا تحيض . . فأنتظرني ولا تغادر قبل عودتي فعندي موعد هام سأنتهي منه وأعود لك على الفور تكون قد أخذت قسطًا من الراحة .

أمام وداد جلست سوسن لتستمع لأغرب ما استمعت إليه في حياتها . جلست أمام صديقة عمرها وزميلة دراستها تستمع لقصة الخوف والقلق قالت وداد :

ـ اعذريني يا سوسن . لم يشعر بما أعانيه إلا من كان في مثل ظروفي ، فعلى حد قول الأطباء فقد بلغت سن اليأس ، وانتهت حياتي .

ضحكت سوسن مقهقهة :

ـ ما في امرأة على وجه الأرض إلا وبلغت تلك السن ، وليس في ذلك عيب أو إهانة أو نهاية .

وداد :

ـ ولكن بالنسبة لي هي النهاية . . نهاية الأمل الذي كنت أحيا عليه ويحيا عليه معي محمود ، إذ ربما يشاء الله وتحدث المعجزة ويأتي الولد . . أما الآن فأنا لا جدوى مني . . أرض بور . . لن تطرح أبداً .

اقتربت سوسن من وداد تحتضنها وتضع رأسها على كتفها :

ـ إذن لقد أنبك محمود وعيرك بذلك .

اعتدلت وداد في جلستها وقالت :

ـ محمود لا يعلم عن ذلك شيئًا فقد أوهمته ، وفي كل شهر أدعي المرض والألم في موعد الدورة الشهرية الذي يمزقني .

سوسن :

ـ وتنكدي عليه وعلى نفسك حتى تحبكي الكذبة التي اخترعتيها ونسيت أو تناسيت أن ما يربط بينكما حب عمقه سنوات عمركم .

قالت وداد :

ـ مانسيت ولكني خشيت . . خفت أن يفقد الأمل في ويبحث عن أخرى . . تعطيه الأمل .

قالت سوسن بهدوء :

ـ فعلاً . . لقد جاءني اليوم محمود وطلب مني أن أبحث له عن امرأة أخرى .

انهارت وداد وأجهشت بالبكاء قائلة :

ـ آه . . لقد اكتشف أمري وذهب يبحث عن زوجة أخرى صغيرة لينجب منها .

قالت سوسن :

ـ اسمعي يا وداد . . إن محمود لا يبحث إلا على السعادة والهدوء والاستقرار فكل منا رجلاً كان أو امرأة في هذا العمر يبحث عن السكينة التي ذكرها الله تعالى في كتابه الكريم : M Y Z] \ [^ _ ` a b . . . n L (الروم : 21) . لقد أخطأت يا وداد ، لا تحافظ المرأة على زوجها وحبيبها وشريك عمرها بهذه الطريقة وتلك الأكاذيب ، وكان الأجدر بك أن تحولي هذه المرحلة من العمر من يأس إلى أمل وأن تكون بداية للحياة ـ حياة كلها فرح ومرح ونزهات ورحلات . لا نهاية لزواج يشهد له الجميع . حاولي يا وداد أن تبدئي معه من جديد .

قاطعتها وداد سريعة :

ـ كيف وقد ذهب يبحث عن أخرى؟

قالت سوسن :

ـ فلتكوني أنت هذه الأخرى فهيا أبدلي ملابسك وأحسني زينك وتعالي معي فلك عندي في فيلتي مفاجأة .

وعندما عادت وداد مع سوسن إلى فيلتها تركتها في إحدى الحجرات وذهبت إلى حيث تركت أخاها محمود فوجدته ممدداً على السرير وقد بدا عليه الإعياء ، فاقتربت منه هامسة بفرحة :

ـ لك عندي بشرى طيبة ومفاجأة سارة .

قال محمود بلا مبالاة :

ـ ما عاد شيء يشعرني بالفرح أو السرور ، فالكآبة التي أحياها أفقدتني كل أمل في فرح أو بهجة .

قالت سوسن وهي تقترب بمحمود من باب الحجرة التي بها وداد :

ـ هنا وخلف هذا الباب ستجد مفاجأة سارة . . مفاجأة حبيبة إلى قلبك ستسعدك وتسعد معك .

ثم فتحت باب الحجرة وأشارت إلى وداد قائلة :

ـ إليك يا محمود المرأة التي تمنيتها وتبحث عنها . . امرأة ستجعل حياتك من تلك اللحظة مليئة بالحب والسعادة . . امرأة لا يعرف اليائس والنكد بعد الآن طريقها . . امرأة كما طلبتها . . لا تحيض .